المحاكمات التاريخية الكبرى

٢ ـ الحركة النهلستية
ومصرع القيصر اسكندر الثاني

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

اعتزم القيصر شهود حفلة الاستعراض العسكرية في ميدان ميخايلوفسكي كما قدمنا، وقام البوليس باتخاذ الاجراءات المعتادة للمحافظة على سلامة القيصر فزار الشوارع التي يمر بها الركب الملكي؛ وكان ثمة في شارع «مالايا سادوفيا» حانوت لبان يفتح هنالك منذ ثلاثة أشهر يديره شخص يدعى كوبوزيف وزوجه؛ وكان البوليس يشتبه في أمر هذا الحانوت وأمر صاحبه، وأداره في عصر يوم السبت بحجة التفتيش الصحي فلم يجد فيه ما يريب؛ ولم يكن كوبوزيف في الواقع سوى عضو من أعضاء لجنة التنفيذية وضمته اللجنة هنالك ليكون عوناً لها على التنفيذ.

واعتزمت اللجنة الثورية من جانبها أن تنتهز هذه الفرصة لتنفيذ قرارها باغتيال القيصر فغادرت بيروفسكايا مسكنها وذهب ميخايلوف إلى حانوت كوبوزيف ليضع لغما قويا تحت شارع «مالايا سادوفيا» وأنفق كيالتشتش وهو عضو اللجنة المتخصص في صنع القنابل طول الليل في منزل فيرا فنجر مع جرانشفسكي وبيروفسكايا، ولم يأت الصباح حتى تم صنع قنابل أربعاً حملها كيالتشتش وبيروفسكايا. وفي صباح يوم الأحد أول مارس وقفت صوفيا القنابل الأربع على أربعة من الشبان الفدائيين جرنفتسكي واميليانوف وميخايلوف وريسا كوف وعمره تسعة عشر عاماً فقط؛ وتفرق الأربعة في نقط أربع عينت في خريطة التنفيذ حول منعطف نفسكي والطرق المفضية إليه. وفي الساعة الثانية بعد الظهر كان كل في مكانه المعين ينتظر إشارة صوفيا التي وقفت صوفيا مدى حين ترقب ميدان الاستعراض عن بعد. ولكنها ما لبثت أن علمت أن الركب الملكي لن يمر بالشارع الذي وضع فيه اللغم، فسارت عندئذ صوب منعطف نفسكي في اتجاه جرنفتسكي وأخرجت منديلها، فقطن الفتيان إلى إشارتها وساروا تباعاً صوب قناة سانت كاترين لمقابلة الركب الملكي، واستولى الفزع على أحدهم وهو ميخايلوف فانسل واختفى في آخر لحظة، وبقي الثلاثة الآخرون يرقبون الانذار الأخير.

وذهب القيصر إلى ميدان الاستعراض نحو الظهر. ولما انتهى الاستعراض ذهب إلى قصر ميخايلوفسكي القريب حيث تناول طعام الغداء مع الجراندوقة كاترين ميخايلوفنا؛ وفي الساعة الثانية وبضع دقائق انتظم الركب الملكي للعودة، وأمر القيصر سائق مركبته أن يعود إلى قصر الشتاء من نفس الطريق. وكان يحرس العربة الملكية ستة من الفرسان الفوزاق وتتبعها عربة أخرى يقف فيها مدير البوليس، ثم ثالثة بها ضباط الحاشية. وسار الركب مسرعاً في شارع انجرنايا، مجتنباً بذلك شارع ماليا سادوفيا (الذي وضع به اللغم) ثم اتجه يميناً إلى جسر قناة القديسة كاترين؛ وكان المكان قفراً ليس فيه غير رجال الشرطة والمخبرين الذين ينتشرون على طول الطريق وسوى قليل من المارة.

بيد أن الركب ما كاد يقترب من جسر القناة حتى دوى انفجار هائل وانعقدت فوق الموكب سحابة من الدخان الكثيف، وكانت هذه قنبلة ريسا كوف انفجرت وراء العربة فأتلفت مؤخرتها؛ وفي الحال أوقف السائق العربة ونزل القيصر منها سالماً وكان قد سقط على مقربة منها فوزاقي وثلاثة من الشرطة وغلام من المارة مصابين بجراح بالغة. وقاد رجال الشرطة صوب القيصر فتى عريض المحيا غائر العينين هو ريسا كوف، فسأل القيصر: أهو الفاعل؟ وفي تلك اللحظة سأل أحد كبار الضباط: «هل جرح صاحب الجلالة؟» فأجاب القيصر: «شكراً لله فإني سليم معافى» وهنا قال ريسا كوف: «لا تعجل بشكر الله» وسار القيصر ومن حوله الحاشية إلى مكان الانفجار ليرى الجرحى ولكنه ما كاد يسير بضع خطوات حتى دوى انفجار آخر وانكشف الغبار والدخان عن منظر مروع:

سقط القيصر صريعاً وقد كسر ساقاه، وبقر بطنه، واحترق وجهه، ومن حوله عدة من الجرحى. وفي الحال حمل القيصر مضرجاً بدمائه إلى قصر الشتاء، ولكنه زهق بعد ذلك بقليل دون أن يعود إلى رشاده أو يفوه ببنت شفة.

وعثر رجال البوليس بين الجرحى على الفتى الذي ألقى القنبلة

الثانية ، وكان فى دور النزع وتوفي بعد ساعات قلائل دون أن يبوح باسمه للمحقق . ولكن البوليس وقف على اسمه بعد ذلك وقد كان أجناتوس جرنفتسكي الثورى البولونى وأحد الفدائيين الأربعة . أما الرابع وهو أمليانوف فقد اختلط بالناس واستطاع الفرار

واعترف ريسا كوف بالقاء القنبلة الأولى ، وشرح للمحقق سيرته فذكر أنه طالب بمدرسة المناجم وعضو فى حزب « إرادة الشعب » ، وأنه يشتغل ببث الدعوة الثورية بين العمال وقدم بعض تفاصيل عن المؤامرة وتدبيرها ولكنه لم يُعرِّف عن أحد من زملائه . وفى ساعة متأخرة من الليل واجهه المحقق بجليابوف ، فحياه جليابوف بحرارة ؛ ولما علم بمقتل القيصر أبدى ابتهاجه ، وقال إنه وإن لم يشترك بنفسه فى تنفيذ الحادث بسبب اعتقاله فانه يشترك فيه بكل قلبه ، وإنه اشترك فى عدة محاولات سابقة لاغتيال القيصر ، ولم يمنعه من الاشتراك فى قتله سوى مصادفة سخيفة ، ولذلك فهو يطلب أن يحاكم مع ريسا كوف وسوف يدلي للمحقق بكل ما يثبت مسئوليته .

ولم يمض يوم آخر حتى استطاع البوليس أن يظفر بآثار المرهبين . وفى مساء نفس اليوم هاجم مركزهم فى شارع تالينايا فانتحر صاحب الدار وهو ثوري يدعى سابلين قبل دخول البوليس وقبض البوليس على صاحبته المدعوة جسيا هلفمان وضبط لديها بعض القنابل . وقبض فى صباح اليوم التالى على ميخايلوف ، ولاحظ البوليس فى الوقت نفسه أن حانوت اللبان فى شارع مالاياسادوفيا قد أغلق واختفى صاحباه ففتش الحانوت مرة أخرى فاكتشف فيه سرداباً خفياً يصل حتى منتصف الشارع وقد وضع فيه لغم ثبت بسلك رفيع إلى آلة كهربائية ؛ وفى يوم ١٠ مارس استطاع البوليس أن يقبض على صوفيا بيروفسكايا وكانت لاتزال مختفية فى العاصمة ترقب الحوادث ، فاعترفت فى الحال باشتراكها فى مقتل القيصر واشتراكها فى حادث القطار الملكى .

وهكذا استطاعت الشرطة أن تضع يدها على جميع الجناة ولم يفلت من يدها سوى امليانوف الذى اختفى عقب الحادث ولم يعترف أحد عليه .

— ٣ —

وفى نفس اليوم الذى قبض فيه على صوفيا بيروفسكايا أعنى فى يوم ١٠ مارس ١٨٨١ وجهت اللجنة التنفيذية لحزب إرادة الشعب إلى القيصر الجديد — اسكندر الثالث — كتاباً ضافياً تسهله بالاعتذار عن مخاطبته فى تلك الآونة الدقيقة « إذ يوجد ماهو أسمى من أية عاطفة بشرية وهو الواجب نحو الوطن ثم تقول فيه :

« إن المأساة الدموية التى وقعت على جسر ترعة سانت كاترين لم تكن حادثاً غامضاً غير متوقع ، بل كانت بعد كل ما حدث فى الأعوام العشرة الأخيرة قضاء محتوماً ، وهذا ما يجب أن يفهمه الرجل الذى ألقي إليه القدر مقاليد الحكم . ولقد تمت الحركة الثورية واشتد ساعدها بالرغم مما اتخذ من إجراءات القمع الذريع ، وبالرغم من أن حكومة القيصر الراحل قد ضحت بحريات كل الطبقات ومصالحها ولم تدخر وسعاً فى ازهاق المجرم والبرى وفي تعمير السجون النائية بالمعتقلين . ولقد شنق عشرات ممن يسمونهم بالمحرضين فماتوا فى هدوء الشهداء . ولم تقف الحركة الثورية بل استمرت قوتها فى ازدياد . أجل يا مولاى إن الحركة الثورية لا تتوقف على إرادة الفرد ، بل هى عملية تقوم بها الاداة القومية ولن تنجح المشانق التى تقام لصفوة قادة هذه الحركة فى انقاذ النظام السياسى المحكوم عليه ، كما أن صلب المسيح لم ينجح فى إنقاذ العالم القديم الفاسد من ظفر النصرانية المصلحة

« ونحن أول من يعرف كم يحزن ويؤسى أن تبدد هذه المواهب والعزائم كلها فى أعمال التخريب ، فهذه القوى يمكن فى ظروف أخرى أن تستخدم فى عمل الانتاج : في تربية الشعب وفى تثقيفه ، وفى زيادة رفاهته وتحسين نظمه ؛ فلماذا إذن نلجأ إلى خوض هذا النضال الدموي ؟

« لأنه لا توجد لدينا يا مولاى حكومة بمعنى الكلمة وواجب الحكومة هو أن تعبر عن أمانى الشعب وأن تمثل إرادته ولكن الحكومة عندنا قد انحطت إلى عصابة قصر ، وغدت أحط من اللجنة التنفيذية بأن توصف بعصابة من الغاصبين »

وتستعرض اللجنة بعد ذلك مثالب الحكم القيصرى وإمعانه فى استعباد الشعب وتسخيره ، وما جلبته هذه السياسة على روسيا من الخراب والبؤس وما ترتب عليها من فقدان الحكومة لكل نفوذ معنوى . وهذا هو السبب فى اضطرام الحركة الثورية ، وهذا هو السبب في ابتهاج الشعب لازهاق القيصر ثم تقول :

« ولا مخرج لهذه الحالة سوى أمرين : فاما الثورة المحتومة التى لا يمكن أن يمنعها أى قمع ، وإما التوجه إلى سلطة الأمة